

«حقيقة مروي وأسطورة نبتا»

أ.د. أحمد محمد علي الحاكم

أستاذ التاريخ بالجامعات السودانية

أ.د. عمر حاج الزاكي

المستخلص:

الموضوع ترجمة لبحث قيم كتبه باللغة الإنجليزية المغفور له بإذن الله : أحمد محمد علي الحاكم ، ونشر في مجلة -آداب- مجلة كلية الآداب بجامعة الخرطوم في العام 1975م، بعنوان The city of Meroe and myth of Napata .، ترجمناه ليقول: «حقيقة مروي وأسطورة نبتا» خلاصة دراسة وقناعة كاتب الموضوع أن مدينة (مروي- البجرواية) كانت وظلت العاصمة الإدارية لمملكة كوش (الثانية) ، وليس هناك مملكة تعرف أو تنسب لنبتا؛ وأن نبتا كانت طيلة فترة عمر تلك المملكة المديد 750ق.م - 350م، العاصمة الدينية بمعنى لم تكن مقراً للملوك ، وأن ملوك مروي كانوا (فقط) يتوجون في معبد آمون الكبير (ب. 500) في نبتا حيث كانوا يعتقدون أن معبودهم الأكبر (آمون) يقطن في ذلك الجبل . وقراءة الموضوع تظهر أن نظرية ب. الحاكم فريدة في طرحها وقوية في حججها المدعومة بالأسانيد التاريخية والآثارية.

The CITY of Meroe and the Myth of Napata

Prof. Dr. Ahmed Muhammad Ali Al-Hakim

Prof. Dr. Omar Haj Al-Zaki

Abstract:

The topic is a translation of a good paper written in English by the late Pro. Ahmed Mohamed Ali El Hakem and published in 1975 ADAB, the journal of the faculty of Arts- Khartoum university with the title “The city of Meroe and the myth of Napata” The main theme of the topic is that Meroe was the Administrative capital of the Kushite Kingdom all through the history of the kingdom (750B.C- 350A.D) and that Napata has never been the capital but was the religious center of the kingdom where the kings of Meroe were crowned and blessed by Amun of Napata who was believed to abide in the Barkal holy mountain. The theory of Prof. El Hakem is unique and fully supported by historical and archaeological arguments.

*1 مقدمة:

الموضوع بالعنوان أعلاه سطره باللغة الانجليزية المغفور له بإذن الله البروفسير أحمد محمد علي الحاكم في مجلة الآداب مجلة كلية الآداب بجامعة الخرطوم العدد (2-3) في العام 1975م ، ص 31-120. وكما جاء في الهامش الأول من هذا البحث إن هذا الموضوع سبق أن قدم في الثاني من أغسطس 1972م ضمن أوراق المؤتمر السابع عشر للجمعية الفلسفية الذي انعقد في الخرطوم في ذلك التاريخ وان تعديلا أجري عليه في العام 1973م لينشر أخيراً في التاريخ الذي أشرنا إليه في مجلة (آداب) .

ومن ناحية أخرى فقد راودتني فكرة ترجمة هذا الموضوع للغة العربية منذ أن أطلعت عليه أثناء إعدادي لأطروحة الدكتوراه تحت إشراف البروفسير حاكم في بداية عقد الثمانينات لتوافقي معه ولأسباب ثلاثة أخرى .

السبب الأول هو لتفرده في طرحه بين كل الآراء التي بحثت عن حقيقة (نبتا) و (مروي) وانتقال عاصمة كوش من عدمه من (نبتا) إلى (مروي) والسبب الثاني تمكين الكثيرين من المهتمين والدارسين بحقيقة ذلك والذين لا تمكنهم محدودية معرفتهم باللغة الانجليزية من استيعاب ما ساقه الباحث من حجج تعضد قناعته بأن مروي كانت وظلت عاصمته مملكة كوش (750ق.م).

م-350) وأن نبتا كانت عاصمة دينية لا شك في ذلك والسبب الثالث والأخير أن أمر الانتقال (المزعوم) لم يحسم بعد وكثيراً ما تظهر عنه آراء متباينة في كتابات البعض وفي الأطروحات العلمية ومقررات التاريخ في مراحل التعليم العام وفي الإعلام وغير ذلك .

2* في مناقشة هذا الموضوع:

يقول الحاكم أحاول استخلاص ما تقول به المصادر التاريخية والآثارية مجتمعة من حجج والاستفادة من ذلك في تقييمي لدور ومكانة مدينة (مروي) في حضارة السودان القديم . ولذلك تقتصر هذه الدراسة على حقيقة مملكة مروي التي سادت في الفترة بين العام 1000 ق.م والعام 400 للميلاد وسيلاحظ القارئ أن مصطلح مروي في هذه الدراسة يشمل ما ظل شائعاً بين المؤرخين ليعني فترتي (نبتا) و (مروي) ، وفي مجرى البحث أدناه سيجد القارئ أسباب ما قلنا به عن تلك الفترة .

وفي البدء أود أن أنوه إلى أن كتابتي عن (مروي) كموضوع ذو أهمية خاصة يعود لعدة أسباب : أولها إن جامعة الخرطوم ظلت تقوم بالتنقيب في موقع مروي خلال السنوات الست الماضية ونتج عن ذلك وصولنا لكثير من المعلومات الجديدة عن تاريخ هذه المدينة بالإضافة إلى ذلك فإنني قمت بدراسة خاصة ومتعمقة عن تطور العمارة والفنون في كل المملكة بتركيز خاص في منطقتي جبل البركل ومروي .. وفي أثناء تلك الدراسة حظيت بالوصول للتركة الأثرية الغنية عن مدينة مروي المحفوظة في جامعة ليفربول - وهي نتائج حفريات قارستانج (1909-1913م) والتي لم تنشر والسبب الثاني الذي حفزني لإجراء هذه الدراسة موقع مدينة مروي المتميزه وهو يختلف عن ويتميز على مناطق أرض النوبة (التي تضم نبتا وشمالها) حيث يلعب النهر في تلك المنطقة دوراً أساسياً في قيام المدن واقتصاد المنطقة بينما يختلف الامر بالنسبة لمدينة مروي اذ هنا لا تعتمد الحياة فقط على النهر الواحد وإنما على النيل وكثير من الفروع والوديان التي تصب فيه بجانب الأمطار الصيفية مع وجود المراعي والأراضي الزراعية الواسعة بعيداً عن النيل ، وهذا أدى لقيام مراكز حضارية مثل النقعة والمصورات وغيرها يضاف الى ذلك موقع مروي المركزي للتواصل مع كل الجهات المحيطة وبذلك تهيأ لهذه المدينة (مروي) الاستفادة من الجمع بين نظم الزراعة النيلية والمراعي الواسعة في البطانة (التي تمثل امتداد المدينة الشرقي).

3*يرجع أصل فكرة تقسيم الزمن الكوشي لفترتين :

فترة (نبتا) وفترة (مروي) إلى عالم الآثار المصرية الألماني أدولف ارمان AdolfErman- الفترة الأولى «فترة نبتا» واطلق عليها اسم «المملكة الاثيوبية» ، ووصفها بأنها سلطة دينية (ثيوقراطية) على عقيدة آمون نبتا ، وأن هذه الفترة انتهت في القرن الثالث قبل الميلاد نتيجة لما قام به الملك المروي «ارقامانيس» Ergamenes من سياسات جديدة لتأثره بما تلقاه من تعليم اغريقي.

ونتيجة لما قام به هذا الملك من خروج على قواعد الحكم والدين والقيم الموروثة أصبحت مروي العاصمة الملكية المدنية الأولى وهكذا حلت في مكانة (نبتا) في القرن الثالث قبل الميلاد.

لقد اعتمد «أرمان» على ما توفر له في ذلك الزمن (بدايات القرن العشرين) من كتابات خطها الكتاب الكلاسيكيونوما وجده من نقوش بالهيروغليفية في آثار «نبتا».

وبعد حين جاء عالم اللغات قريفت (Griffith) وأيد ما ذهب إليه «إرمان» مستنداً في ذلك على ما وقع من اختلاف بين الكتابة الهيروغليفية المصرية التي ظلت سائدة في فترة نبتا والكتابة الجديدة «المروية» التي حلت محلها في فترة مروي.

وأخيراً جاء عالم الآثار الأمريكي رايزنر Reisner مؤيداً لآراء من سبقوه وبحجج تبدو قوية أساسها الآثار وفي ذلك لاحظ (رايزنر) وجود ثقافتين متباينتين الأولى سادت في «نبتا» وعليها تأثير مصري واضح والثانية سادت في «مروي» وقد ابتعدت كثيراً عن المؤثرات المصرية وأرخ لنهاية فترة نبتا وبداية فترة مروي بعام 300 ق.م .

وفي الفترة بين نشر كتاب «أرمان» وترجمته للغة الإنجليزية في عام 1907م الذي احتوى رأيه الذي أشرنا إليه ونشر تقارير رايزنر الأولية (1917/23م) قام عالم الآثار قارستانج (Garstang) بالتنقيب في مدينة مروي ولم يبدو له اختلاف بين حضارة نبتا ومروي وإن مدينة مروي كانت هي المدينة الرئيسية في المملكة ولكن وبكل أسف لم يكتث أو يروج لآراء قارستانج فسادت وما تزال آراء رايزنر عن المدينتين والمملكتين (انظر الهامش رقم 8 من البحث) ولأن رايزنر جعل موقع العاصمة الملكية محوراً لآرائه عن الفترتين التي هي نبتا في البداية ثم مروي في المرحلة الثانية فإن كاتب هذا البحث سيركز بحثه على مكانة مروي ودورها في تلك الحقبة التي شملت ما عرف بمرحلتى نبتا ومروي .

4* الدور القيادي لمروي في إدارة المملكة:

أن رايزنر والآخرين الذين يؤيدون نظرية انتقال عاصمة كوش من نبتا إلى مروي يبدؤون حججهم بافتراض يقول أن نبتا كانت عاصمة المملكة الإدارية في المرحلة الأولى من قيام المملكة ولكن وكما نرى أن هذا الزعم لا يجد أي سند قوي من المعطيات التي بين أيدينا وفي ذلك نلفت النظر إلى أن كل ما كتبه الملوك - ملوك كوش الأوائل - وكان مكتوباً بالهيروغليفية المصرية لم يرد فيه من أقوال أولئك الملوك ما يشير من قريب أو من بعيد إلى أن نبتا كانت عاصمة ملكة أو إقامته وأن تلك الكتابات أبرزت فقط دور مكانة نبتا كمركز ديني ذو أهمية قصوى حيث يتوج الملوك في معبدها الكبير وتقام الاحتفالات المصاحبة ، وكمثال لذلك فإن بعانخي في لوحة نصره أو غزوه لمصر لم يسمى المكان الذي كان فيه قبل الغزو كما لم يذكر اسم المكان الذي عاد إليه وكل ما جاء عن ذلك قوله المبهم ما أشار إليه بعبارة «المكان الذي كان فيه» ويمكن أن يصدق ذلك

على نبتا وعلى مروي على حد سواء ، ويكرر الملك تانوتامني نفس عبارة بعانخي عن أنه «كان في المكان الذي هو فيه» عندما استدعى ليتوج وأنه قام من هناك برحلة باتجاه الشمال حتى وصل نبتا ومنها إلى «فيلة» ثم طيبة وما أورده الملك تانوتامني يمكن أن يفهم بقراءة لوحات تتويج الملوك الثلاثة آمون نوتي يركي ، وحرسيونفونستاسن حيث اقر كل واحد من هؤلاء الملوك أنه أبحر شمالاً من عاصمة ملكة (مروي) إلى (نبتا) ليتم تتويجه هناك وهذا يجعلنا نفترض أن بعانخيوتهارقوتانوتامني كانوا يعنون بالمكان الذي كانوا فيه يعنون مروي ، إن هذا وحده يجعلنا نعيد النظر فيما قال به رايزنر عن نبتا ومروي .

وثمة دليل آخر يؤيد طرحنا وذلك فيما يتعلق بدفن الملوك بعد موتهم وقد تأكد أن مكان دفن الملوك لا يعني بالضرورة أن ذلك المكان كان في المحيط القريب لمكان ملكهم. وفي ذلك نعلم أن الملوك الأوائل شبكا وشبتكوو تهارقو الذين جعلوا عاصمة ملكهم في مصر (ممفيس) حينما ماتوا دفنوا في مقبرة الكرو ، في منطقة نبتا وأن الملوك آمون نوتي يركي وحرسيونفونستاسين الذين أكدت لوحات تتويجهم أنهم كانوا يقيمون في مروي قبروا بعد موتهم في مقبرة نوري الملكية بعيداً عن عاصمة ملكهم . ويستنتج من الكتابات القديمة المختلفة أن موقع «نبتا» المشار إليه يكون أمام جبل البركل مباشرة ولكن المسح الأثاري للمنطقة المشار إليها لم يقود إلى وجود مساحة كافية لتشييد مدينة ملكية عامرة بالمباني في تلك المنطقة وأن المساحة التي تقع أمام الجبل مباشرة مخصصة للمعابد وتوابعها ، قاد ذلك الواقع بعضهم إلى الظن بأن مدينة نبتا (المزعومة) إنما كانت قائمة في الضفة الأخرى من النهر المقابلة لجبل البركل وبالتحديد في موقع مدينة مروي (الحالية الحديثة) ولكن من يأخذون بهذا الرأي يتجاهلون حقيقة أن موقع مروي (الحديثة) كان مركزاً دينياً مستقلاً له إله خاص به وتقام في معابده احتفالات دينية منفصلة عن تلك التي كانت تقام في نبتا وأن الموقع دمر تماماً في عام 591 ق.م وقت غزو الفرعون المصري بسماتيك الثاني وخبا ذكره بينما ظلت نبتا مركزاً دينياً مذكوراً لقرون عديدة بعد ذلك.

وعلى نقيض ما يقال عن «نبتا» حسب الأدلة والمنطق وضعف الآراء التي تقول أنها كانت العاصمة الأولى لمملكة كوش فإن الحجج والأدلة التي سنسوقها في الصفحات التالية ترجح بل تؤكد أن العاصمة الإدارية الملكية كانت مروي :

5* وفي ذلك نقول :

أن الدراسة المتعمقة لكل كتابات الملوك الكوشيين من لدن بعانخي 744 ق.م وحتى الملك نستاسين 335 ق.م وحينما تتعرض لمكان الملك يذكر (مروي) ولا تشير أبداً (لنبتا) كعاصمة ملكية ، وأن أول ذكر لمدينة مروي كعاصمة ملكية جاء مرتين من مصدرين مختلفين يعودان لمنتصف القرن الخامس قبل الميلاد.

المصدر الأول هو نقش الملك آمون نوتي يركي (431-405 ق.م وهو النقش الذي وجد في الكوة) ، أما المصدر الثاني وهو مصدر خارجي صاحبه المؤرخ الأغريقيهرودوت وقد ورد في رواية هردوت أن ملك الفرس ارسل جواسيسه ملك عموم (الاثوبيين يقصد المرويين) في عام 525ق.م ومما ورد عن رحلة أولئك الجواسيس تأكد أن العاصمة كانت في مروي وليس نبتا. وهنا يجدر بنا ذكر رأي اختلف مع رايزنر يقول بأن نبتا كانت العاصمة حتى عام 591ق.م عام غرو بسماتيك لها وأن العاصمة انتقلت بعد ذلك التاريخ الى مروي ولكن قراءة لوحة الكرنك التي قام بها عالم الآثار واللغات مكادم تشير إلى أن الملك اسبلنا الذي هاجمه بسماتيك الثاني كان يدعى «ملك مروي» وليس ملك نبتا فاذا كان ذلك صحيحاً فإن ذلك يسقط النظرية القوية التي تقول بانتقال العاصمة الى مروي في عام 591 بسبب تلك الغزوة. وثمة أدلة أخرى تؤيد حقيقة مروي وقدمها نجدها في نتائج حفريات قارستاج التي كشفت عن عراقية هذه المدينة وقدمها ومن بين ذلك فقد كشفت الحفريات عن وجود اسماء لأفراد من الأسرة المالكة - اسم الأميرة أماني رديس ابنة الملك بعانخي واسم الملك سنكامنسكن (623-643)ق.م .

إما إذا اتجهنا إلى المدافن الملكية في البجراوية (مروي) فنجد أدلة أوفر ترجح أن تاريخ نشأة مدينة مروي أقدم مما يقول به البعض وأن تلك الأدلة تشير أيضاً إلى أنها كانت العاصمة ومقر الأسرة المالكة منذ بداية مملكة كوش وبخاصة ما وجد من لقى في المقبرتين الغربية والجنوبية في البجراوية.

لقد وجد في بعض تلك المدافن اسماء الملوك المؤسسين الأوائل كاشتا وبعانخي وشبكا وغيرهم ، وإن مدافن المقبرة الغربية ونوعها Tomb Type فيرجع تاريخها لفترة ما قبل كاشتا مما يؤكد أن مروي بدأت تزدهر مع بدايات نهضة الكوشيين وأن ذلك يتزامن مع المراحل الأولى لمقبرة الكرو يضاف إلى كل هذا أن الدراسات التي شملت مقبرة الكرو ونوري والبركل تظهر أنه باستثناء مقبرة البجراوية الغربية لا توجد مقبرة للأطفال ولا شك أنها مقبرة أطفال الأسرة المالكة وأن دفنات هذه المقبرة تشمل كل العهود التي كان يدفن فيها الملوك والملكات في الجبانات الملكية في الكرو ونوري والبجراوية والبركل ، وهذا يقود لاستنتاج بسيط هو أن الأسرة المالكة كانت تقيم في مروي منذ البداية وحتى نهاية العمر المديد لتلك المملكة فيما عدا الفترة التي انتقلت فيها العاصمة بالضرورة إلى مصر (ممفيس) في عهد الملوك شبكا وشبتاكا وتهارقا وتانوتمنيوبعد خروجهم من مصر عادوا لعاصمة ملكهم مروي.

إن ما أوردناه من حجج يجعلنا نقدر أن مروي ظلت عاصمة لمملكة كوش منذ قبل عام 800 ق.م وأن صورة تلك المدينة - تخطيط المدينة وعمرائها وطرقها وتحصيناتها - تؤكد أنها كانت المدينة الملكية الأولى ولم يوجد لها شبيه في ذلك وأخيراً إن ما يؤكد قدم المدينة وبشكل قاطع قد توفر في النتائج الأولية للحفريات التي تجريها بعثة جامعة الخرطوم في المدينة الملكية حيث تأكد

أن الاستيطان في الجزء الشرقي من المدينة يعود للقرن العاشر قبل الميلاد وربما أكثر وبذلك قطعت نتائج اختبار الكربون (14) على قطعتين من الخشب المستعمل في عهود المدينة الأولى.

***6 ونختم بملاحظة:**

أن النظرة الفاحصة العابرة تؤكد أن المخلفات الأثرية في مروي ونبتا لا تدل ولا تشير إلى تغيير وتباين حاد في حضارة تلك الفترة بل إن كثيراً من اللقى هنا وهناك تؤكد استمرارية تلك الحضارة غير أن مروي تعكس الصورة الأكمل لحضارة كوش وقتها أكثر مما تكشفه «نبتا».

الهوامش:

(1) أ.د. أحمد محمد علي الحاكم (1935-1996م) من مواليد السلمة ريفي بربر تخرج من جامعة الخرطوم كلية الآداب في العام 1963م ، وعين أول مساعد تدريس بقسم الآثار ، حصل على درجة الماجستير والدكتوراة من جامعة كامبريج (1966-1971م) تبعاً ، كما حصل على درجة الأستاذية في العام (1983م) وتولى منصب الأمخين العام للهيئة القومية للآثار والمتاحف في الفترة من (1994-1995م)، يعتبر البروفسور حاكم الأول بين علماء الآثار السودانيين الذين قادوا نشاطاً واسعاً في إدارة المسوحات والتنقيب عن الآثار في أجزاء متفرقة من السودان، شملت شرق ووسط وغرب البلاد ، ومن أبرز مؤلفاته جاءت عن كرمة ، العمارة المروية ، الهوية السودانية . وهذه الورقة المتفردة في طرحها.